

شرح العقيدة الطحاوية

الدرس الرابع

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ أما بعد...

فمغنى اليوم الدرس الرابع من دروس شرح العقيدة الطحاوية، وقد وصلنا عند قول

المؤلف: **(ولا إله غيره)**

الضمير هنا في قوله: (غيره) عائد إلى لفظ الجلالة المتقدم؛ أي: لا إله إلا الله؛ هذه كلمة التوحيد، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله.

(لا إله)؛ أي: لا معبود، والإله: هو المعبود في لغة العرب؛ وبهذا فسره أهل السنة والجماعة؛ فقالوا: (لا إله)؛ أي: لا معبود، وقدرُوا خبر (لا) المحذوف بـ: "حق"؛ أي: لا إله حق إلا الله؛ فيكون المعنى: لا معبود بحق إلا الله، وأخذوا هذا من قول الله تبارك وتعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} [الحج: ٦٢] هذا معنى كلمة التوحيد عند أهل السنة والجماعة.

وأما المؤلف فأخذ قوله: **(لا إله غيره)** من قول الأنبياء لأقوامهم لما أرسلوا إليهم، قال الله سبحانه وتعالى عنهم في كتابه الكريم: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٦٥] من هنا أخذ المؤلف هذه الجملة التي ذكرها، هذه الكلمة قالها نوح، وقالها هود وصالح وشعيب، والأنبياء جميعاً كانت هذه دعوتهم؛ كما تقدم ذكر ذلك.

وقد ذكرنا أن أهل السنة والجماعة وكذلك أهل اللغة يفسرون الإله بالمعبود؛ لأن هذا ما دلت عليه اللغة العربية وهو ما دلت عليه الآيات في كتاب الله وكذلك الأحاديث في سنن النبي ﷺ وهي كثيرة؛ ومنها هذا الذي ذكرنا: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} المعنى واضح؛ ما لكم معبود إلا هو الذي يُعْبَدُ بحقِّ.

خالف المتكلمون في معنى كلمة التوحيد؛ فقالوا: الإله بمعنى القادر على الاختراع؛ فَرَدُّوا المعنى إلى الربوبية، ولا شك أنه لا خالق إلا الله، وأنه لا رازق إلا الله، وأنه لا مُدَبِّرَ إلا الله؛ لا شك في هذا، وهذا من التوحيد أيضاً، لكن لم يكن هذا هو سبب النزاع بين الأنبياء وأقوامهم، فلو كان هذا المعنى هو المراد من كلمة التوحيد؛ لما حصل اختلاف بين الأنبياء وأقوامهم، ولا حصل نزاع ولا فرقة ولا عذاب على الشرك في هذا؛ لأن أقوامهم كانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الرازق المدبر؛ فلا يأتي نبي يدعو القوم الى أمرهم يؤمنون به؛ ولكنه يدعوهم الى أمر أشركوا فيه وخالفوا فيه؛ وبهذا يحصل النزاع بين الأنبياء وأقوامهم، النبي ﷺ لما بعث الى قومه قال: "يا قوم قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"؛ فماذا ردوا عليه؟ قالوا: {أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥]، وقالوا: ما يريد هذا الرجل إلا أن يصرفكم عن آلهتكم؛ أي: عن معبوداتكم التي تعبدونها من دون الله؛ بينما ذكر الله سبحانه وتعالى عنهم في كتابه الكريم؛ قال: {وَلَيْتُنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان: ٢٥]؛ فليس عندهم إشكال في هذا؛ لذلك كانت أعظم دعوة الأنبياء إلى هذا التوحيد- توحيد أفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة-؛ لأن الشرك كان حاصلًا فيه، ولا شك أن الذي يُدعى إلى عبادة الله وحده هو الذي يؤمن بأن الله خالق رازق مدبر، وأن الله موجود، ولو لم يكن يؤمن بهذا؛ فتبدأ معه بالإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى- هذا مُسَلَّمٌ به-؛ فالدعوة إلى أفراد الله سبحانه

وتعالى بالعبادة هي متضمنة الدعوة إلى إفراد الله سبحانه وتعالى بربوبيته وأسمائه وصفاته أيضاً، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

فلما خالف المتكلمون في هذا المعنى؛ بنوا على ذلك أموراً عظيمة؛ فصار التوحيد عندهم ينقسم إلى: توحيد الذات، وتوحيد الأفعال، وتوحيد الأسماء والصفات، وليس عندهم ذكر لتوحيد الألوهية في أقسام التوحيد التي عندهم، نعم يوجد بعض المتكلمين - وهم قلة - يذكرون توحيد الألوهية، توحيد العبادة؛ لكن ليسوا هم الأكثر، ولا هو التوحيد الأهم عندهم؛ وهذا يفسر انتشار الشرك في البلاد التي يوجد فيها من علماء المتكلمين ومن الصوفية؛ لماذا؟ لأنهم لا يرفعون رأساً بتوحيد الألوهية، ولا يهتمون به الاهتمام المطلوب، حتى توحيد الربوبية الذي يدندنون به؛ ليس التوحيد الذي أراده الرسل، ولا هو التوحيد الذي عليه أهل السنة والجماعة؛ لا؛ إنما أدخلوا في ذلك من أنواع الضلال والفساد والتحريف الشيء الكثير؛ أدخلوا في ذلك: نفي الصفات؛ فنفي الصفات عندهم من التوحيد.

والتوحيد بآرك الله فيكم: نفي وإثبات؛ لا بدّ من النفي والإثبات؛ {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء: ٣٦]، {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣]، {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]؛ هذا كله فيه نفي وإثبات، وإبراهيم والذين معه ماذا قالوا لقومهم؟ قال تعالى: {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ} [الممتحنة: ٤] هنا أيضاً نفي وإثبات؛ بهذا يتحقق معنى التوحيد.

الأمر الأخير الذي نريد أن ننبه عليه هنا؛ هو:

قلنا إن معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)؛ أي: لا معبود بحق إلا الله، (لا) هذه نافية للجنس، لها اسم وخبر، اسمها: (إله): (لا إله)، وخبرها محذوف له تقدير؛ قدره بعض النحاة؛ فقال: (لا إله موجود إلا الله)؛ وهذا التقدير خطأ وباطل؛ إذ الآلهة الموجودة كثيرة؛ المعبودات التي عبدت من دون الله كثيرة، انظر ماذا قال المشركون للنبي ﷺ: {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا}، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الذين كانوا يعبدون أنواعاً من المعبودات؛ فمن الناس من كان يعبد القمر، ومنهم من يعبد الشمس، أو يعبد الكواكب أو يعبد الأصنام، أو يعبد الجن، أو الملائكة؛ فالمعبودات كثيرة ومذكورة في كتاب الله سبحانه وتعالى؛ فلا يصح أن يقال معنى: (لا إله إلا الله) لا إله موجود؛ لأن هذا يكذبه الواقع.

أو أنك تريد أن كل الموجودات هي الله، (لا إله موجود)؛ أي: كل المعبودات هي الله؛ وهذا القول كفر، وهو قريب من قول الذين يقولون بالحلول والاتحاد.

إذاً ما هو التقدير الصحيح؟

يُرْجَعُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَصَلَ إِلَى التَّقْدِيرِ الصَّحِيحِ، وَقَدْ وَجَدْنَا قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} [الحج: ٦٢]؛ فمن هنا أخذ العلماء التقدير؛ فقالوا: لا إله حق إلا الله؛ فيكون خبر لا النافية للجنس: "حق"؛ هذا ما أردنا أن نذكره في هذه الجملة.

ثم قال المؤلف رحمه الله: **(قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ، لَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ)**

ماذا يعني الطحاوي بقوله عن الله سبحانه وتعالى: **(قديم بلا ابتداء)؟**

يريد من هذا أن الله سبحانه وتعالى موجود من القدم وموجود أبداً؛ يعني: لا يوجد وقت من الأوقات لا يكون الله سبحانه وتعالى موجوداً فيه؛ لا في السابق ولا في

الحاضر ولا في المستقبل؛ فالله سبحانه وتعالى وجوده دائماً لا ينقطع أبداً، لا انقطع في الماضي ولا ينقطع في المستقبل.

فقوله: (قديم بلا ابتداء)؛ لا يوجد نقطة في الماضي ابتداءً بها وجود الله سبحانه وتعالى؛ لا، أبداً؛ الله سبحانه وتعالى دائماً موجود.

قوله: (دائم بلا انتهاء) يبقى دائماً لا ينتهي وجوده أبداً، (لا يفنى) فناء: لا يزول؛ يعني: لا يصير عدماً.

وقوله: (ولا يبيد) بنفس معنى لا يفنى؛ أي: لا يصير عدماً أبداً؛ فالعدم مستحيل عليه تبارك وتعالى؛ هذا المعنى المراد؛ وهو معنى متفق عليه بحمد الله بين المسلمين، وحتى الكثير من الكفار.

لفظ القديم والدائم؛ لم يردا في الكتاب والسنة؛ إنما الوارد: الأول والآخِر؛ كما في قول الله تبارك وتعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: ٣]، وفسر هذا حديث في "الصحيح": قال النبي ﷺ: "اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء"؛ وهذا الحديث يفسر معنى الأول والآخِر؛ وهو المعنى الذي أراده المؤلف بقوله: (القديم والدائم)، لكن التعبير بالقديم والدائم لم يرد، الوارد: الأول والآخِر، والأصوب: أن يعبر بهذا اللفظ؛ فيقال: هو الأول والآخِر؛ لكن هل يحرم استعمال هذا اللفظ كخبر عن الله تبارك وتعالى؟

أجاز العلماء استعمال مثل هذا في الأخبار، الألفاظ التي تدل على معان صحيحة في حق الله سبحانه وتعالى؛ مثل هذا أجازوه في الأخبار؛ يعني: تخبر عن الله سبحانه وتعالى بهذا؛ فنقول: الله قديم بلا ابتداء دائماً بلا انتهاء، أما التسمية؛ فلا؛ لأن أسماء الله تبارك وتعالى توقيفية؛ فلا يجوز أن تقول: يا قديم يا دائماً.

فأما الإخبار؛ فتخبر بهذا، وأما التسمية؛ فتسمي: الأول والآخ كما سمي الله سبحانه وتعالى؛ فكما ذكرنا الأسماء والصفات توقيفية؛ يعني: هي موقوفة على ما ورد في الكتاب والسنة لا نزيد على ذلك ولا نتجاوز؛ هذا المراد من هذا.

المتكلمون أطلقوا اسم القديم على الله سبحانه وتعالى؛ فيقولون: هذا يجوز على القديم؛ وهذا خطأ؛ لعدم وروده في الكتاب والسنة، وبعض أهل العلم قالوا: القديم لا بد له من جديد؛ فلا يصح أن يقال في حق الله سبحانه وتعالى.

أما تقرير العقيدة؛ فكما ذكرنا: هذا أمر لا اختلاف فيه بحمد الله بين المسلمين؛ لأن الله سبحانه وتعالى وجوده دائم ولا يفنى تبارك وتعالى، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٦-٢٧]؛ فالكل يفنى إلا الله سبحانه وتعالى، الفناء- فناء المخلوقات- بيد الله سبحانه وتعالى.

يعني: يقول لك قائل: أهل الجنة خالدون لا يفنون، وأهل النار خالدون لا يفنون؛ فهل هناك فرق بين عدم فناء المخلوق وعدم فناء الله سبحانه وتعالى؛ الله لا يفنى ولا يبئد؟ نقول: نعم هناك فرق؛ المخلوق وجوده جائز؛ يعني: ممكن أن يفنى وممكن أن يبقى، وبقاؤه وفناؤه بيد الله سبحانه وتعالى، أما الخالق؛ فمستحيل أن يفنى تبارك وتعالى؛ هذا الفرق. المخلوقات جميعها مسبوقه بعدم؛ لكن الله سبحانه وتعالى وجوده غير مسبوق بعدم، وبعض المخلوقات تبقى ولا تفنى؛ لكن الأمر بيد الله سبحانه وتعالى؛ إذا أراد فناءها أفناها، أما هو تبارك وتعالى؛ فلا يفنى.

قال المؤلف حمه الله: **(ولا يكون إلا ما يريد)**

لا يكون إلا ما يريد الله تبارك وتعالى؛ فهو تبارك وتعالى فعال لما يريد، كما قال سبحانه وتعالى: {فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ}؛ فالله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء، وهو رب كل شيء، ويفعل ما يشاء تبارك وتعالى.

وإرادة الله تبارك وتعالى إرادتان؛ إرادة كونية، وإرادة شرعية.

الإرادة الكونية: كل ما يحصل في هذا الكون؛ فقد حصل بإرادته الكونية؛ وهذه الإرادة هي المقصودة في قوله تعالى: {فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ}، {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: ١٢٥]؛ هذه إرادة كونية.

أما الإرادة الشرعية؛ فهي ما أراده الله شرعاً، فما أمر الله سبحانه وتعالى به وأراد منا أن نتقرب إليه به؛ فهذا مما أراده شرعاً، أراد منا الإيمان، أراد منا أن نصلي، وأن نصوم، وأن نزكي؛ هذه كلها إرادة شرعية؛ أرادها شرعاً؛ يعني: أراد منا هذه الأشياء إرادة شرعية، وهذه ربما تحصل وربما لا تحصل، أمر الله الناس بالإيمان؛ منهم من يؤمن ومنهم من يكفر، أمرهم بالصلاة؛ منهم من يصلي ومنهم من لا يصلي.

إذن هذه الإرادة الشرعية لله سبحانه وتعالى من حيث الحصول؛ ربما تحصل وربما لا تحصل؛ لكن الله سبحانه وتعالى يحبها ويرضاها؛ لذلك شرعها، من حيث المحبة؛ الله سبحانه وتعالى يحب ما شرعه ويرضاه.

أما الإرادة الكونية، فمن حيث الحصول؛ إذا أراد شيئاً حصل، وإذا قضى أمراً؛ فإنما يقول له كن فيكون، قال سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢]؛ هذا إرادة كونية، من حيث الحصول يحصل ما أراده الله، ومن حيث المحبة

والرضا؛ فما يحصل ربما يجبه ويرضاه وربما لا يجبه ولا يرضاه؛ فإيمان المؤمن إذا حصل يجبه الله ويرضاه، أما كفر الكافر؛ فلا يجبه ولا يرضاه؛ لكنه يحصل بإرادته تبارك وتعالى.

وهذه الإرادة الكونية هي نفسها المشيئة؛ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

هذه من مباحث القدر، وخالف في هذه المسألة القدرية والمعتزلة؛ فهؤلاء زعموا أن الله أراد الإيمان من الناس كلهم، والكافر أراد الكفر؛ فما الذي تحقق؟

تحققت إرادة الكافر، ولم تتحقق إرادة الله سبحانه وتعالى.

وقولهم هذا مخالف للكتاب والسنة؛ هؤلاء يقولون بأن العاصي يعصي بإرادته والله سبحانه وتعالى لا يريد منه المعصية لا كوناً ولا شرعاً، ولا يعترفون بالإرادة الكونية لله سبحانه وتعالى في مثل هذا؛ في أفعال العباد؛ العبد عندهم يفعل بإرادته وإن لم يرد الله ذلك.

هؤلاء قدرية وسيأتي موضوع القدر في موضعه، والمؤلف رحمه الله فرّق مسائل القدر.

أهل السنة يقولون: إن الله وإن كان يريد المعاصي قَدَرًا؛ فهو لا يجبها ولا يرضاه ولا يأمر بها؛ بل ينهى عنها ويبغضها؛ لكن عندهم: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا شيء يكون في هذا الكون إلا بإرادته تبارك وتعالى، وهذه الآية واضحة: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَانَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ}؛ إذا حصل الإضلال بإرادته أم لا؟ نعم حصل بإرادته، والله يفعل ما يريد، ويضل من يشاء؛ فلا توجد إرادة تغلب إرادة الله سبحانه وتعالى؛ {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٩]، وهذه الآية واضحة ودلالاتها صريحة، وهؤلاء جعلوا إرادة العبد غالباً لإرادة الله سبحانه وتعالى - تعالى الله عما يقولون، ونعوذ بالله -، وكما ذكرنا ستأتي إن شاء الله زيادة بيان لمسألة القدر في موضعها إن شاء الله.